من التراث الشرطي

الأمن .. والقوة في اللين!

عبدالرحيم حاج يحيى*

هناك ظاهرة لا تزال شائعة... ظاهرة تجمع ثلل من ذوي الحارة في غالباً لدى دكان الحي للأنس.. والأحاديث... والسمر.

وهذه الظاهرة بطابعها الماضي كانت أشبه بمنتدى شعبي رحب تحكى فيه الطرفة والشعر والقصص والحوادث وشؤون المجتمع... إنها مجالس ارتادها الأخيار والعلماء والفضلاء فكانوا يتحلقون في فناء الدار أو خارجها ويجلسون تلك الجلسة المعروفة (بالاحتباء). أي ضم الجالس رجليه إلى بطنه يجمعهما بثوب مع ظهره .

وقد عدد الفرزدق مفاخراً جريراً بمرتادي فناء داره من الأعيان (كزرارة، ومجاشع، وأبي الفوارس) فقال:

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتاً دعائمه أعز وأطول
بيتاً زرارة «محتب» بفنائه
ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا «يحتبي» بفناء بيتك مثلهم
أبداً إذا ما عد الفعال الأفضل

بيد أن هذه المجالس الاجتماعية قد يعتريها الانحراف والفساد فتكون لها أضرارها الأمنية الخطيرة.. تشيع في الحارات بصورة مزعجة ومزرية وهي في مدلولها تسكع في الطرقات المنهي عنه بقول رسولنا صلى الله عليه وسلم «إياكم والجلوس في الطرقات».

إنه جلوس بطالة وخمول.. وأحاديث ثرثرة وفضول، تنطلق منها الشائعات والأكاذيب.. وألوان من الإفك والهراء والبهتان العظيم.

إنها مجالس... وإنها بقع اجتماعية داكنة راكدة في مجرى الحياة الناصعة النابضة التي يحياها المجتمع بالجد والعمل والمثابرة.

إنها مجالس هزل وصخب.. وسهر.. وأحياناً حتى السحر... همسات خافتة خبيثة ودسائس تثير البلبلة... والتهم الباطلة... قد يحاك فيها ما يحاك!!... تجمع هذه المجالس أيضاً الشباب والمراهقين في حلقات تسكع مشين، فإذا هم بعد ذلك رفاق سوء يضرون بالأمن والطمأنينة وينتهكون حرمات الحارة والمارة..

- وفي الحدث التاريخي التالي نقف على هذه الظاهرة ببعدها الأمني والاجتماعي، إذ أزعجت الخليفة «المعتضد» فالتمس لها الحل المناسب لدى «عبيد الله بن سليمان» للقضاء عليها فأشار عليه بمواجهتها بالقسوة والعقوبات المغلّظة... فما كان من الخليفة «المعتضد» إلاّ أن أنكر عليه ذلك أشد الإنكار وزجره ثم لقنه هذا الدرس القيّم المتمثل في النص التالي.

* * *

جاء في كتاب الإمتاع المؤانسة لأبي حيان التوحيدي

إنه رفع إلى الخليفة المعتضد أن طائفة من الناس [يجتمعون بباب الطاق ويجلسون] في دكان شيخ تبّان «بائع الأقمشة» ويخوضون في الفضول والأراجيف وفنون من الأحاديث وفيهم قوم معتبرون وأهل بيوتات.. ومن يسترق السمع منهم من خاصة الناس وقد تفاقم فسادهم وإفسادهم، فلما عرف الخليفة ذلك ضاق ذرعاً وحرج صدراً وامتلأ غيظاً ودعا بعبيد الله بن سليمان، وقال : انظر في هذه الرقعة وتفهمها ففعل وشاهد من وجه المعتضد ما أزعج ساكن صدره، وشرد آلف صبره، وقال: قد فهمت يا أمير المؤمنين قال: فما الدواء؟ قال: تتقدم بأخذهم وصلب بعضهم وإحراق بعضهم وتغريق بعضهم فإن العقوبة إذا اختلفت كان الهول أشد، والهيبة أفشا، والزجر أنجع، والعامة أخوف، فقال المعتضد: والله لقد برّدت لهيب غيظي بقسوتك، ونقلتني إلى اللين بعد الغلظة، وما علمت أنك تستجيز هذا في دينك وهديك ومروءتك ولو أمرتك ببعض ما رأيت بعقلك وحزمك لكان من حسن المؤازرة ومبذول النصيحة والنظر للرعية الضعيفة الجاهلة أن تسالني الكف عن الجهل، وتبعثني على الحلم، وتحبب إليّ الصفح وترغبني في فضل الإغضاء على هذه الأشياء. وقد ساءني جهلك بحدود العقاب وبما تقابل به هذه الجرائر وبما يكون كفاً للذنوب، ولقد عصيت الله بهذا الرأي ودللت على قسوة القلب وقلة الرحمة ورقة الديانة، أتظن أن العمل بالجهل ينفع والعذر به يسع. لا والله ما الرأي ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرت، وجّه صاحبك وليكن ذا خبرة ورفق ومعروفاً بخير وصدق، حتى يعرف حال هذه الطائفة، ويقف على شأن كل واحد منهم في معاشه، وقدر ما هو متقلب فيه ومنقلب إليه فمن كان منهم يصلح للعمل فعلقه به ومن كان سيء الحال فصله من بيت المال بما يعيد نضرة حاله ويفيده طمانينة باله، ومن لم يكن من هذا الرهط وهو غني مكفيّ، وإنما يخرجه إلى دكان هذا التبان البطر والزهو، فادع به وانصحه ولاطفه وقل له إن لفظك مسموع وكلامك مرفوع.

* * *

ونقف من استقراء هذا النص على كثير من المعاني منها:

أولاً :يكاد يرسخ هذا الدرس التطبيقي الرائع في الأذهان.. وفي الوجدان.. قيم الأمن والفضيلة والعدالة والرحمة بوضع الحلول الناجعة للقضية الأمنية الاجتماعية المطروحة... لأسبابها وبواعثها، لا الاكتفاء بتناول ظواهرها وأعراضها.

ثانياً : لا بد من النظر في القضايا الأمنية برؤية وبصيرة وتقويمها تقويماً سليماً، وتصنيفها تصنيفاً صحيحاً وأن العقوبة ليست كما قال عبيد الله للخليفة المعتضد، أنها أخوف للعامة، وأنجع للزجر، وأفشى للهيبة.

ثالثاً: ينبغي تصحيح الفكر الأمني من حيث الرشد والاتزان والحزم أو من حيث الحكمة والرفق والمرونة، حتى يكون الأداء الشرطي صواباً بالإشراف والمراقبة والتصحيح والتوجيه المباشر. فها هو المعتضد يصرخ في وجه عبيد الله (أنك تستجيز هذا في دينك وهديك ومروءتك... ولقد عصيت الله بهذا الرأي ودللت على قسوة القلب وقلة الرحمة ورقة الديانة).

رابعاً: إسناد الملف الأمني لذوي الكفاءة والأمانة والدراية، فمثل هذه الظاهرة - التي عرضناها- منشؤها هو العامل الاجتماعي والاقتصادي والنفسي، كالبطالة والفراغ والفقر والأمية.. فهي بحاجة إلى تصنيف (ودراسة حالة) يقول المعتضد: (يعرف حال هذه الطائفة، ويقف على شأن كل واحد منهم في معاشه، وقدر ما هو متقلب فيه ومنقلب إليه فمن كان منهم يصلح للعمل فعلقه به ومن كان سيء الحال فصله من بيت المال بما يعيد نضرة حاله ويفيده طمأنينة باله، ومن لم يكن من هذا الرهط وهو غني مكفيّ، وإنما يخرجه إلى دكان هذا التبان البطر والزهو، فادع به وانصحه ولاطفه).

- وكم يحتاج رجل الأمن اليوم إلى الوقوف عند هذه النماذج الرائعة، النابضة وقراءة هذه المعاني والقيم السامية، وتدارسها بوعي وبصيرة، فهي بصورتها الحية الماثلة وبلغتها الواضحة وأسلوبها البديع قد قدمت الحلول المثلى التي لا تضاهيها اليوم تلك المفاهيم الاجتماعية والتربوية لبعض الآراء المطروحة من قبل فكر مهترئ غريب الوجه واللسان..

* مركز الدراسات والبحوث - أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية

من التراث الإسلامي

الرفق يأسر القلوب

د. حسن محمد عبه جي*

الرفق: هو اللطف ولين الجانب، وهو ضد العنف.

والرفق: خلق رفيع، يحبه الله، تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ (إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله)، رواه البخاري ومسلم.

وقد ندب الإسلام إلى هذا الخلق الكريم ورغب فيه، فقال ﷺ (إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه) رواه مسلم.

وفي رواية (والله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف). لذا ينبغي التحلي بهذا الخلق السامي في كل الشؤون والأحوال ومع كل الناس. ومن ذلك الرفق بمن يقع أسيراً في أيدي المسلمين، لما فيه من المصالح والمنافع التي تتحقق للإسلام وأهله من جراء ذلك وهذا هو رسول الله ﷺ القدوة الحسنة والمثل الأعلى يضرب لنا أروع الأمثلة في الرفق بالأسرى من خلال هذه القصة.

بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد. فخرج إليه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.

فترك حتى كان الغد.

ثم قال له النبي ﷺ ما عندك يا ثمامة؟

فقال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر.

فتركه حتى كان بعد الغد.

فقال: عندي ما قلت لك.

فقال النبي ﷺ اطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى محل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ.

والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ.

والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ.

تلك هي قصة أسر ثمامة بن أثال وإسلامه.

وثمامة هذا يكنى أبا أمامة، وهو من بني حنيفة ، لاقى أحسن معاملة لما وقع أسيراً في يد المسلمين، فقد أنزلوه في اقدس بقعة وهي المسجد، ليكون قريباً من النور والهدى، وأكرموه غاية الإكرام، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إلى ثمامة، فجمعوا له كما أمر بناقة له أن يعدى بها ويراح على باب المسجد ليشرب ثمامة من لبنها.

ويخرج النبي ﷺ لمقابلته ثلاثة أيام، يكرر عليه فيها سؤالاً واحداً محدداً: ماذا عندك يا ثمامة؟ والمعنى : ماالذي استقر في ظنك إني فاعل بك؟

فيجيب ثمامة: إني أظن خيراً، فأنت يا محمد لست ممن يظلم، فإن تقتلني فبحقه فقد أصبت منكم دماً، ولا عتب عليك في قتلي، وإن تمنن علي وتطلق سراحي فقد عفوت عمن يحفظ جميلك ويشكر لك صنيعك، وإن كنت تريد فدية فلك من المال ما تريد.

بهذا أجاب ثمامة في اليوم الأول، وكأنه رأى علامات الغضب على وجه النبي ﷺ في اللقاء الأول فقدم أصعب الأمرين على نفسه، والأشفى لصدر خصومه وهو القتل لكنه لما رأى أن القتل